



شِعْرُ الزُّهْدِ

هُرُوبٌ مِنَ الاَضْطِرَابَاتِ وَالصَّرَاعَاتِ وَالْفَسَادِ إِلَى حَيَاةِ الْوَرَعِ وَالتَّقْوَى

ظَهَرَ شِعْرُ الزُّهْدِ وَاشْتَهَرَ مَعَ بَدَايَةِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الْأَوَّلِ. وَشِعْرُ الزُّهْدِ فِي الْأَصْلِ جَاءَ رَدًّا عَلَى تَيَّارِ اللَّهْوِ وَالْمُجُونِ وَالْعَيْشِ الْمُتْرَفِ، وَأَنْتَشَارَ الْخَمْرِ وَمَجَالِسِ الْغِنَاءِ، فَقَامَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ عَلَى رَأْسِهِمْ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ بِالتَّصَدِّي لِهَذِهِ التِّيَّارَاتِ بِاسْتِعْمَالِ غَرَضٍ جَدِيدٍ هُوَ الزُّهْدُ، فَكَانَتْ قِصَائِدُهُمْ دَاعِيَةً إِلَى التَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ، وَنَبَذَ هَذِهِ الظُّوَاهِرِ.

وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ تَمَّ تَوْظِيفُ شِعْرِ الزُّهْدِ تَوْظِيفًا إِيْجَابِيًّا فِي خِدْمَةِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ وَالتَّهْوِضِ بِهِ، وَذَلِكَ بِطَرَحِ قِضَايَا فَعَّالَةٍ فِي نَهْضَةِ الْأُمَّةِ، كَتَقْدِيمِ مَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ عَلَى الْمَصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَإِثَارِ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا، وَالْعَمَلِ الدَّوْرِبِ فِي خِدْمَةِ الدَّعْوَةِ وَالرَّفْعِ مِنْ شَأْنِهَا، وَالصَّبْرِ وَتَحْمُلِ الْمَشَاقِّ فِي سَبِيلِ هِدَايَةِ التَّائِهِينَ، وَتَقْدِيمِ الْمُسَاعَدَةِ لِلنَّاسِ فِي أَوْقَاتِ الشَّدَائِدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَالزُّهْدُ السَّلِيمُ هُوَ عَمَلٌ إِيْجَابِيٌّ لِتَرْبِيَةِ الْمُجْتَمَعِ الصَّالِحِ، وَلَيْسَ أَسْلَاحًا عَنِ الْوَاقِعِ وَهُرُوبًا مِنْ مُوَاجَهَتِهِ كَمَا شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ.

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِي

كَانَتْ مَوْجُودَةً بِكَثْرَةٍ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ قَدِيمًا، وَفِي كُتُبِ التَّرَاجِمِ وَالسِّيَرِ فَيُنْضَى مِنْ هَذَا الْغَرَضِ الشُّعْرِيُّ، وَأَكْثَرُ مَا نَجِدُ هَذَا اللَّوْنَ الشُّعْرِيَّ لَدَى الْعُبَادِ وَالزُّهَادِ وَالْعُلَمَاءِ، بَيْنَمَا هُوَ قَلِيلٌ ضَامِرٌ لَدَى مَشَاهِيرِ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ شَغَلَتْهُمْ الْأَغْرَاضُ الْآخَرَى لِلشُّعْرِ عَنْ هَذَا الْغَرَضِ، وَالْمُتَقَدِّمُ فِي هَذَا الْغَرَضِ مِنْ أَعْلَامِ الشُّعْرَاءِ بِلَا مُنَازَعٍ هُوَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ، فَقَدْ اسْتَحْوَذَ الزُّهْدُ عَلَى مُعْظَمِ شِعْرِهِ.

وَقَدْ انْطَلَقَ شِعْرُ الزُّهْدِ مِنْ كَوْنِهِ ظَاهِرَةً نَفْسِيَّةً لَهَا أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ، عَبَّرَ مَا يَدُلُّ عَلَى حَنِينِ الرُّوحِ إِلَى خَالِقِهَا بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا وَالرَّغْبَةِ عَنْ نَعِيمِهَا وَتَفْضِيلِ نَعِيمِ الْآخِرَةِ عَلَيْهَا.

وَالْمُتَأَمِّلُ فِي الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ يَجِدُ أَنَّ شِعْرَ التَّدِينِ قَدْ ظَهَرَ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ فِي صُورَةِ آيَاتٍ مُفْرَدَةٍ، تَأْتِي عَرَضًا فِي قِصِيدَةٍ تُعَالِجُ مَوْضُوعًا مَا، لَكِنَّ شِعْرَ التَّدِينِ هَذَا كَانَ عِبَارَةً عَنْ حِكْمٍ مُتَفَرِّقَةٍ أَتَتْ نَتِيجَةً لِلتَّأَمُّلِ وَالتَّجَرُّبَةِ، فَجَاءَتْ صَادِقَةً، خَاصَّةً فِيهَا يَتَعَلَّقُ بِالمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ.

وَفِي نَهَايَةِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ كَانَتْ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ شَبَهَ مُتَعَطِّشَةٍ إِلَى الْإِصْلَاحِ، فَيُمْكِنُنَا مَلَاخِظَةُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مَعَانِي بَعْضِ الْقِصَائِدِ الَّتِي تَكَادُ تَقْتَرِبُ مِنْ مَعَانِ نَادَى بِهَا الْإِسْلَامُ.

وَمَعَ بَدَايَةِ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ بَدَأَ الشُّعْرُ يَتَجَمَّلُ، فَضَلَّ عَنْ اتِّجَاهِهِ إِلَى الدَّفَاعِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَمَدْحِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْمَعْرُوفِ وَالتَّهْيِي عَنِ الْمُنْكَرِ وَالتَّذْكِيرِ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وَمَعَ بَدَايَةِ ظُهُورِ الْفِتَنِ بَعْدَ مَقْتَلِ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَجَدَ الزَّاهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ يَهْرَبُونَ مِنَ الاَضْطِرَابَاتِ الْعَامَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالصَّرَاعِ الْمَذْهَبِيِّ، ثُمَّ الْفَسَادِ الْأَخْلَاقِيِّ الَّذِي نَشَأَ عَنْ حَالَةِ التَّرَفِ الَّتِي عَمَّتِ الْمُجْتَمَعَ، إِلَى حَيَاةِ الْوَرَعِ وَالتَّقْوَى، حَتَّى تَبَلُورَتْ فِكْرَةُ الزُّهْدِ غَرَضًا مِنْ أَعْرَاضِ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ إِبَّانَ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ رَدًّا فِعْلًا وَتِيَّارًا مُضَادًّا لِمُوجَةِ الرَّذَلَةِ الَّتِي انْتَشَرَتْ بَيْنَ النَّاسِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا بِالْمُجُونِ تَوَجَّهُوا فِي أَوَاخِرِ حَيَاتِهِمْ نَحْوَ التَّوْبَةِ، وَبَدَتْ فِي أَشْعَارِهِمْ نَزْعَةُ الزُّهْدِ الْخَالِصِ، كَمَا فِي أَشْعَارِ أَبِي نَوَاسٍ.



وَمَنْ يُفْتَشُ فِي تَارِيخِ شِعْرِ الزُّهْدِ فَسَوْفَ يَجِدُهُ عِنْدَ أُمِّيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ، وَعِنْدَ النَّابِغَةِ الشَّيْبَانِيِّ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ وَعِنْدَ رَابِعَةِ الْعَدَوِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ وَعِنْدَ ابْنِ حَمْدِيْسٍ فِي الْعَصْرِ الْأَنْدَلُسِيِّ، وَعِنْدَ كَثِيرٍ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ اِهْتَمُّوا بِهَذَا اللَّوْنِ مِنَ الشُّعْرِ.